بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه مجموعة منتخبات من الشعر الحديث في مصر بدءاً من " إمام المجددين دون منازع ، " محمود سامى البارودى" الذى أعاد للقصيد العربى بهاءه ورونقه وعنفوانه . واهباً له جماع قواه وفتوته ، حتى خلف منه أربعة مجلدات لا يستهان بها قبل أن يقضى سنة ١٩٠٤ .. بعد سنوات أربع من عودته من منفاه الإجبارى في سرنديب .

وانتهاء بأعلام التجديد حتى نزار قبانى الشاعر المبدع الذى شغل الناس بسياساته وجنسياته اللتين برع فيهما أيما برع إلى حد " الإباحة " في الحالين .. وربما يمثل نزار الآن ضمير الأمة غير الحِيّ .

ومروراً بأعلام الرومانسية المصرية بدرجات تنوعها المختلفة .. وتألقاتها وتفاهاتها أيضاً .

والوقوف أمام " نص" القصيدة الحديثة .. يثير عدة تساؤلات تبدأ "بالاختيار" وأسسه . الهدف الأول من اختيار النص في تصورى هو مدى صدقه فى التعبير عن شاعرية قائله .. وبمعنى آخر فإن الاختيار " إنحياز " في المقام الأول . لأنك تختار أفضل النصوص ، ومن ثم فأنت " تجمل " صورة الشاعر بحسن اختيارك .. وتجميلها يظهرها على غير ماهى عليه فى الحقيقة .. فديوان العقاد تجد به " نفثة " جنباً إلى جنب مع " البيلا .. البيلا .. البيلا .. ما أحلى شرب البيلا " . وكلاهما وجه من أوجه شاعرية العقاد .. الصدق مع التفاهة .. فالتركيز على الأولى لن يقدم الصورة الحقيقية للشاعر .

ونزار قبانى شاعر حتى الثمالة ، حتى لتظن أنك تستطيع فعل ماهو فاعله .. وهو ليس كما يتصور البعض في خمرياته ومجالسه ونسائياته ، فأنا أراه أشبه بابن أبى ربيعة الذى أنكر أن يكون سوى شاعر يحسن التصوير دون تجربة حقيقية معقولة .. وكانت قصيدة " بلقيس " هى شاهدى الأمثل على صحة هذا الإدعاء بما تحويه من صدق الشاعرية والمشاعر تجاه الزوجة .

وقد يقف الإنسان طويلاً أمام " الديوان " يحاول التفتيش فيه عن شيء "يلفت النظر " .. وعلى الرغم من أن في هذا مايبدو " تزييفاً " للواقع ، إلا أنك لا يمكنك ارغام المتلقين على قبول الغث من اختياراتك ولكن ما " يلفت النظر " قد لا يكون معبراً عن معنى جميل ، ولكن قد يكون – فى تصورى – لأنه يوضح نظرية ماحول الشاعر .

ولهذا فإن اختياراتى هنا .. كانت تهدف إلى عدة أمور :

أولها : محاولة اكتشاف جانب " الكلاسيكية " في شعر البارودى والتى لا تعنى " التقليد " وهو ماشاع خطأ في الدراسات النقدية .. فالأول ليس لها مقابل عربى لأنها تشتق من *Class* وتعنى " الفصل " وتعنى الطبقة ، وهى في الأدب تعنى المعارف الأولى التى ظهرت فى عصر التكوين ..

والكلاسيكى هو الذى يلتزم بالقواعد المدرسية للأدب بالتزامه بالعلوم العربية جميعا التزاماً محكماً دون محاولة للتجديد في فرع من فروعها . ولكن " التقليد" فضلاً عن عدم وجوده ، وعدم امكانية ذلك ، حيث أن الانسان لا يستطيع التخلص من سماته الشخصية ، فإنه لا يمكن أن يتم بين زمانين مختلفين وتجربتين مختلفتين .. ومن هنا تبدو التسمية " التقليد " غير موضحة للمعنى المقصود على الرغم من ذيوع استخدامها .

ثانيا : محاولة اكتشاف عناصر " التجديد فى اطار الكلاسيك " في شعر شوقي . والذى يبين من النص الذى اخترناه صياغات الجمل الجديدة وطرائف المعانى غير المسبوقة .

ثالثا : محاولة اكتشاف فساد مزاعم العقاد حول شوقى والتى أوضحها فى كتابه " الديوان في النقد والأدب " الذى اشترك فيه مع المازنى . ومن النص المختار نرى كيف تفرد البيت في القصيدة وكيف أن الدعوة إلى موضوعية القصيدة ليست إلا بدعة يرفضها الشعر العربى برمتها .. فالشعر العربى " شعر البيت " الواحد وسيبقى كذلك . بدليل أن كل ماخرج من غير هذا كان من سقط المتاع .

رابعاً : أن كافة المحاولات الشعرية التالية اعتمدت على " النثرية " بصورة أوضح حتى أضحت سمة تميز أكثر الشعر الحديث والمعاصر .

أزمة الشعر / أزمة العصر:

لم يعد الشعر لغة العصر الحديث .. أو حتى واحداً من لغاته .. فلم يعد الأقدر على تبنى عناصر الحوار القائم على كافة الأصعدة ، وعلى كافة المحاور . ولم يعد اللغة القادرة على تخطى حواجز الظاهر لتستطيع تبنى فكر ماوراءه .. على المستويات الاجتماعية والثقافية والفكرية والإجتماعية .. حتى أننا لم نعد لنسمع له صوتاً .. فقد خفت وتضاءل .. وأخذ يفتش لنفسه عن ركن من بنائنا الثقافى يقنع بالقبوع فيه .. وقد فعل .

لم يعد الشعر هو الصوت الصارخ في البرية .. ربما تحقيقاً أيضاً لفكرة أعتد بها وهى أن الشعر صنو للرومانسية ، ونحن لا نعيش صيغة رومانسية واحدة .. ولأن القصص والمسرح كانا أنسب الصيغ القولية للواقعية ، فقد إزدهرا أيضاً كتلبية لحاجة إعلام جديد تزدهر فيه الخطابية والزعيق لا الهمس والشعر : وربما يكون في هذا التفسير الذى يوضح الظاهرة .

ولأننا لسنا فى عصر الشعر .. فنحن نحتاج إلى شاعر له قوة " نزار قبانى " في أن يرغم متلقيه على الإصغاء ، والاستمتاع ، والتجاوب . والإرغام يأتى بقدر من الشاعرية ، لا يتوفر كثيراً لغير نزار أو لمن يكتب لهم مثل سعاد الصباح .. كما تشير الشائعة القوية .

ولأننا لسنا فى عصر الشعر .. ضاعت لغة الشعر . وافتقدنا كثيراً صيغاً تبقى في الذاكرة لا تضيع . ومفردات تختص بشاعر ما وتميزه ، ومعانى لا تجدها في معاصريه أو سابقيه .. ولهذا افتقدنا الشعر .

في لقاء مع أستاذى د. شكرى عياد .. بعد جلسة شعرية فى " مربد " بغداد في العام الماضى .. طرحت سؤالاً .. أين شعر مصر ..؟ صمت طويلاً مفكراً .. ثم قال : عندك محمد التهامي !! . وقتها أحسست بالفعل أننى لم أكن مخطئاً في ظني .. إن الشعر فى أزمة .

ولقد سمعت شعراً كثيراً من شباب وكبار . وأشهد أن شيئاً منه لم يبق في الذاكرة .. وأشهد أن العيب ليس في المتلقين .. بدليل جمهور " نزار " عندما يحضر " لمعرض الكتاب " في القاهرة .. أو " لمربد " بغداد .

درس النص الشعرى :

كيف ندرس الشعر ؟ سؤال يطرح نفسه كثيراً بين كثير يطرح من أسئلة إجابتها تحتاج إلى وعى بمتغير العصر الثقافى ، ومتغير البنية الفكرية واللغوية بعامة .

درس الشعر يستعير في مصر بعض الموروث وبعض الحديث .. أو هكذا يجب أن يكون .. في تصورى على الأقل . فمن الموروث : اكتشاف بنائية النص ..

وإنضباطه . والكشف عن جماليات الاستخدامات البلاغية واللغوية والدلالية .. بل يمكن التمادى في محاولة اكتشاف علاقات التناغم بين المفردات وحروفها .. وبين عناصر التكوين العروضي والموسيقى .. وهى صيغ تدخل في التركيبة الثقافية للشاعر .. تفضح مدى قربه أو بعده عن التراث . والقرب أجدى .

ومن الحديث : محاولة اكتشاف علاقات البناء النفسى والتشكيلى للنص .. أو اخضاعه لمناهج في التفسير المعتمد على مداخل تاريخية أو سياسية أو نفسية ، أو أيديولوجية من أى نوع كان .. حتى وإن كانت الأيديولوجية إسلامية .

وسوف يضيع من الحديث الكثير .. كما ضاع من الموروث الكثير .

ولكن سيبقى دائماً أن النص الشاعر نص أدبى فى المقام الأول يعتمد على مفرد لغوى يجب أن يكون فصيحاً . بالمعنى التراثى " للفصاحة " وليست بما شاع عن المفرد الآن من أنه فى مقابل " العامى " .

ودرس الشعر العربى لابد وأن يعتمد قدراً من " الحرية " و " التجريد " ، بحيث يصبح الرأى هو الرأى ، والناقد في حل من الإلتزام بآراء سابقة لايراها مفيدة ، وأن يستخدم مناهج حديثة بدلاً من اجترار مناهج ظلت " تضحل " حتى عادت بنا القهقرى " مائة من العزلة " .. ونحن نتصور أننا الفرسان وحدنا فى الميدان لا نرى سوى محاولاتنا التى لا يقنع بها أحد .. ولا تضيف خطوة إلى الأمام بل خطوات إلى الوراء .. نجتر " مشاكل السرقات " ونعيد طرحهااليوم بعد طرحها أول مرة منذ ألف عام ..

و" الحرية" و" التجريد" هما اللذان سيعينان على الوقوف عند أخطاء شوقى دون " وجل " والوقوف على أخطاء " نقاد " سبقوا يهاجمون كل رأى جديد مخالف ، ظنا منهم أن الهجوم وحده سوف يصنع المجد .

ودرس الشعر الحديث ينبع من قناعة " الناقد " الداخلية بالنص .. ولا يعنينى كثيراً أن أكون مواكباً لحركة الابداع .. فقد لا يكون هناك "إبداع " على مستوى "النقد " .. ولا يعنينى كثيراً أن أخرج على أسوار الجامعة تحت أسماء كثيرة مثل "خدمة البيئة " .. ذلك أن البيئة لا يخدمها أستاذ متخصص يخاطب العامة من المثقفين ، ولكن دوره يقتصر على مخاطبة " الخاصة " وعلى هذه الخاصة أن "توصل" من المعارف ماتشاء لخدمة البيئة .. فالبيئة الثقافية لن تخدم جيداً إلا إذا رجع الأساتذة إلى قاعاتهم ومعاملهم وتركوا الإعلام للمطربين والمغنين وطالبى الشهرة الزائفة .. ولقد كان هذا من آراء طه حسين الرائد فى الندوة التلفزيونية الوحيدة التى عقدت معه فى " رامتان " .

ودرس الشعر الحديث يعترف بأنه " حديث " .. والحداثة هنا تعتمد على محاور زمانية ، ومحاور مكانية .. فالمكان الواحد قد اختلف باختلاف الزمان .. فقاهرة نهاية القرن العشرين ليست هى قاهرة بدايته .. ومن ثم فإن شعرها الآن يختلف عن شعرها السابق .. مسافة مابين أمل دنقل والبارودى . وهذا بالضبط ما أعنيه بالحداثة التى قدمت خطأ بشكل مزر بما جعلها صنواً " للإلحاد" ..

و" حداثة النص " تصاحب كل " نص" إبداعى منذ قديم .. ويكفى أن نقول إن "الحديث " و " الموروث " يلتقيان فى شجرة واحدة التقاء الفرع بالجذع .. لا يستطيع أحدهما أن يزعم استقلاله عن الآخر .. أو إمكانية استغنائه عن الآخر .. فلأنصار الموروث أقول إن الجذع فى حاجة إلى فروع .. ولأنصار الحديث أقول إذا أنكرتم صلتكم بالجذع فأعيدوا عليه لغته ونحوه وصرفه وعروضه ومعجمه وبلاغته وميثولوجاه فهى من الموروث واصطنعوا لكم غيرها .. إن قدرتم .

الحديث موصول اذن رغم مزاعم الرافضين ..

والموروث موصول إذن رغم إدعاء المدعين ..

وكلاهما يدخل فى تركيبة البنية الثقافية والفكرية المعاصرة .. المكونة "لأيديولوجية الخطاب الأدبى المعاصر " ..

د. حلمي بدير